مفهوم الدولة ودعوى القومية العربية

دكتور على أحمد عبد القادر(*)

مقـــدمة :

من أهم الأسئلة التى تتوارد على ذهن الباحث فى ظاهرة القومية عموما هى مدى علاقة « الدولة » « بالقومية » — هل تصنع الدولة قوميتها أم أن العكس هو الصحيح فتكون القومية باعثة وخالقة النظام السياسى والإدارى فيها ؟ وهل يمكن لقومية ما أن تظل فى حياتها ونموها وتطورها دون أن يكون لها نظامها السياسى — مثلا ؟ أم هل يجوز قيام دولة كجهاز سياسى وإدارى واحد وأن تكون فى ذات الوقت حاوية لأكثر من قومية واحدة ؟

« الدولة » و« القومية » :

لاشك أن القومية والترابط القومى أعم وأشمل من وجود الدولة . وإذا كانت القومية عبارة عن انصهار لعوامل موضوعية وذاتية عديدة متشابكة ومترابطة إلى حد كبير فان الدولة لاتزيد عن كونها جهازا صنعه الإنسان وخلقه وكما يستطيع الإنسان أن يخلق شيئا فان فى استطاعته فرضا أن يحطمه فى يوم من الأيام فالقومية والانتماء اليها ورائى يصعب ان لم يستحل على الإنسان أن يتخلص منه أوأن يقضى عليه إن هو أراد ، ولكن الدولة ليست إلا أداة صنعها الإنسان ويمكنه أن يعدل فيها أو يغير أو حتى أن يحطمها ويعيد بناءها ان رغب فى ذلك فبحكم الميلاد يصبح الفرد عضوا فى قومية معينة . ولكنه لايدين بالولاء والطاعة لنظام الدولة إلا بحكم قانون وضعى ، ويحدثنا بيلزبرى W.B. Pillsbury فى ذلك فيقول :

(*) كلية الاقتصاد والعلوم السياسية .

« تنمو الدولة من ايديولوجيات قومية ، وتستمد سلطتها الأخيرة من الرأى العام . وهى مجرد أداة تستطيع بها القومية كوحدة فكرية أن تعبر عن نفسها وأن تنظم أعمال أعضائها ، وهى تأخذ شكلها ببطء خلال عملية تجارب ، لأن أفكار الأفراد لاتعى بوضوح أهدافهم . ولكنها تظل فى حركة دائمة غير واضحة نحو حالة أفضل ، وأهداف الأمة هى التى تضع المعايير التى يجب على الدولة أن تعمل جاهدة للوصول اليها »(١) .

قد يستتبع هذا الرأى أن تكون الدولة تعبيراً عن أهداف قومية معينة مما يؤدى إلى :

(١) حق كل جماعة قومية فى أن يتشكل جهازها السياسى الخاص بها والذى يرعى مصالحها منفصلة عن الدولة الأصلية الكبرى صاحبة السيادة المتوارثة عبر التاريخ وتطوراته .

(٢) أن يكون لكل قومية حق الاحتفاظ بتماسكها وتجانسها وحق الطاعة الكاملة والإخلاص التام من كل أعضائها مع إمكانية امتصاص الأقليات فى اطار وبنيان الدولة العام أو حتى طرد هذه الأقليات من حدودها القانونية والسياسية . وقد أيد مزينى Mazzini مثلا الاتجاه الأول بينما ذهب بسمارك Bismarck إلى تعضيد الرأى الثانى حيث رأى استيعاب وامتصاص الأقليات فى كتلة الشعب الكبرى عن طريق عمليات وحلول مصطنعة تتسم بالإجبار عموما كالتعليم الموحد وفرض لغة واحدة وما شابه ذلك .

ولكن التطور التاريخى للمجتمعات البشرية يكاد يكون قد غير هذه

---

(١) Pillsbury, W.B., The Psychology of Nationality and Internationalism, (New York : Appleton, 1919) p. 276.

المفاهيم وابتعد إلى حد كبير عن هذه التفرقة بين « القومية » و « الدولة » وارتضى اصطلاح « الدولة — القومية » جامعا بذلك بين المعنيين . وتعتبر السياسة الدولية عموما من أهم المؤثرات على هذا التطور التاريخى لمفهوم اصطلاح الدولة — القومية حيث تؤدى التغيرات التى تحدث فى المجتمعات الدولية كالحروب والصلات التجارية والثقافية مثلا إلى شعور مواطنى الدولة — القومية جميعا بالانتماء إلى كل متفرد بمميزاته إن هو قورن بالمجتمعات الأخرى.

ولعل الحرب مثلا تكاد تكون أقوى هذه العوامل الموحدة لمشاعر واتجاهات أبناء الأمة ، فالخوف من الهزيمة التى قد تؤدى إلى الكبت والتحقير بل ربما الموت . تدفع بالمواطنين إلى المرافقة على كل ما تتخذه الدولة من أساليب مكافحة الخطر المشترك — داخليا وخارجيا — بل قد يذهبون إلى حد دفع الدولة إلى بذل جهود أكبر حتى لو كان فى ذلك مساس بحرياتهم واتجاهاتهم .

الماركسية والدولة والقومية :

وقد يؤدى ذلك الجو المناسب الذى يستطيع فيه ذوو النزعات التحكمية والدكتاتورية أن يبسط هؤلاء نفوذهم ويستغلوا ظروف مجتمعاتهم إلى حدود بعيدة ، تحقيقاً لمغانم شخصية أو حبا فى السلطة والجاه . ومن الأمثلة الواضحة على ذلك حالة جوزيف ستالين وهتلر وموسولينى وغيرهم ، حتى أن جوزيف ستالين فى خطابه إلى المؤتمر الثامن عشر للحزب الشيوعى قد دافع عن تمسكه بنظام الدولة وتقوية إرادتها وسلطاتها — ومن المفروض أنها تتلاشى تلقائيا حسب النظرية الماركسية لتعطى مكانها لإدارة الأشياء بدلا عن إدارة وحكم الأفراد وذهب فى ذلك إلى أن :

« الطبقات المستغلة قد ألغيت من وطننا ، وقد بنيت الاشتراكية ونحن نتقدم الآن نحو الشيوعية ، ولما كان المذهب الماركسى يقول بأنه لاتوجد « دولة » فى ظل الشيوعية ، فلماذا لانساعد دولتنا الاشتراكية على أن تموت ،

وأن نعيد الدولة إلى متحف الآثار ؟ . . هذه الأسئلة لاتعنى مجرد سوء التقدير لما يحيطنا من مجتمعات رأسمالية ، بل ينطوى على سوء تقدير للدور الذى تلعبه الدول البرجوازية وأجهزتها ومغزى ذلك حيث تبعث الينا بجواسيسها وقتلتها ومخربيها ، وينتظرون الفرصة السانحة لمهاجمتنا بالقوة المسلحة . وهم أيضاً يسيئون تقدير دور دولتنا الاشتراكية وقوتها العسكرية ومخابراتها . ومغزى ذلك فى الدفاع عن الأرض الاشتراكية ضد العدوان الأجنبى (١)»

نظرية هانز كوهن :

وإذا كان الماركسيون قد فكروا فى نهاية الدولة من الناحية السياسية على أساس أنها أداة سيطرة طبقية لاوجود لها فى مجتمع اشتراكى متطور نحو الشيوعية ، فانهم قد أبقوا عليها نظريا كجهاز إدارى عامل فى خدمة رفاهية الأفراد وتنظيم تمتعهم بامكانيات المجتمع — ويدعونا هذا إلى التساؤل عن مكانة الدولة كجهاز إدارى بالنسبة لظاهرة القومية عموما ، فنجد أن هانز كوهن يقول مثلا :

« ان نمو القومية هو عبارة عن عملية تكتيل جموع الشعب فى شكل سياسى مشترك أى أن القومية تفترض سبقا وجود شكل مركزى للحكم — فى الحقيقة أو الخيال على مساحة واسعة واضحة(٢)» .

وبالرغم من وجاهة مذهب كوهن هذا عن وجود رباط مشترك يجمع بين

---

(١) Stalin, Jeseph, Some Questions of Theory, March 10, 1939 — (Report on the Work of the Contrals ? Committee to the Eighteenth Congress of the Communist Party of the Soviet Union), From Strategy and Tactics of World Communism — Committee on Foreign Affairs (Washington D.C., U.S.A. Government Printing office, 1948), p. 143.

(٢) Kohn, H., The of Nationalism : A Study in its Origins and Background, (New York: Macmillan, 1944), p. 4.

مواطنى أمة معينة فى خضوع مشترك لقانون عام ونظام عام كعامل يحقق تجانسا بين أفرادها إلى حد كبير ، إلا أن افتراض سبقه للعوامل الاجتماعية الأخرى فى تكتيل جموع الشعب فى اتجاه معين مشترك يعوزه الإيضاح ، فسبق وجود الحكومة المركزية لنمو القومية فى مجتمع ما يستتبع الأخذ بوجهة نظر القائلين بأن « الدولة تصنع القومية » وحتى إذا أخذنا — فرضا — بضرورة وجود حكومة من الناحية الوظيفية فى أى مجتمع بشرى بصرف النظر عن الشكل الذى تتخذه تلك الحكومة ، فاننا بذلك نرجع ظاهرة القومية إلى عصور تاريخية ضاربة فى القدم إلى أبعد ما يمكن لها أن تكون . فحضارات فجر التاريخ فى وادى النيل وبلاد ما بين النهرين وحضارات الصين والهند مثلا كلها مجتمعات عرفت نظما ادارية على درجات متفاوتة من الكفاءة(١) فى الشئون العامة وأمور الديانات المختلفة والجيوش ونحو ذلك . فهل نستطيع أن نقول إن قيام نظام مركزى لحكومة فى أى شكل تتخذه أدى فى الأزمنة الغابرة إلى ترابط سكان منطقة وادى النيل أو بلاد ما بين النهرين فى شكل مجتمع متجانس مثلا ؟ أم أن سكان تلك المناطق قد ترابطوا وتشابكت مصالحهم تحت ظروف عدة ومؤثرات مختلفة استطاعت أن تجعل منهم وحدة اجتماعية على درجة كبيرة من التجانس والتماسك ؟ أغلب الظن أن الثانى أقرب إلى الصواب ، فالتجانس الاجتماعى ووحدة المصالح والغايات تحت ظروف مشتركة قد أدى إلى انبعاث تلقائى لتنظيمات اجتماعية اتخذت صفات السلطة والتبعية لها تدريجيا وتطورت مع الزمن .

دعوى القومية العربية

إذا انتقلنا إلى تطبيق هذه المفاهيم على العالم العربى وجدنا أنه منذ

---

(١) يتحدث موروبرجر M. Berger فى كتابه Bureaucracy and Society in Modern Egypt : A Study of the Higher Civil Service, (Princeton, New Jersey : Princeton University Press, 1957)
عن النظام الإدارى فى مصر حديثا ممتعا — حبذا لو رجع اليه القارىء خاصة فى الصفحات ١٧—٢٥ .

فجر التاريخ نشأت أقدم حضارات عرفها الإنسان حسب ما تحدثنا به اكتشافات الآثار ودراسات الأنثروبولوجيا ، وفوق هذه الرقعة الشاسعة من الأرض الممتدة عبر قارتين من العالم القديم تفاعلت تلك المدنيات واتصلت الحضارات عن طريق التبادل التجارى أو الهجرات العلمية أو الفتوحات الحربية وماشابه ذلك .

حقيقة أن العالم العربى المعاصر ككل لم يكن فى أى زمن فى التاريخ القديم وحدة سياسية متماسكة ، ولكن ذلك الجزء الذى عرف درجات متقدمة من المدنية فى ذلك الحين استطاع بصورة أو بأخرى أن يشكل ترابطا سياسيا وإداريا لفترات تختلف طولا وقصرا عبر التاريخ البشرى القديم .

أثر الإسلام :

كان الإسلام صاحب الفضل الأكبر فى بداية مرحلة من تاريخ متجانس إلى حد كبير فى هذه المنطقة من العالم ، حيث استطاع بدعوته للتماسك والترابط أن يجمع أشتات العرب فى شبه الجزيرة فوحد بينهم على عزيمة تعرفت على ذاتها وقوتها فى تكتلها أمام المجتمعات المحيطة ، وسارت تنشر الدين الجديد شرقا وغربا .

ومع الدين الجديد نشر العرب عهدا من الطمأنينة والسلام فى ربوع العراق والشام ومصر وشمال أفريقيا بعد تخليصها من نير الاستعباد والاحتلال الفارسى والبيزنطى ، فبدأت بالحكم العربى فترة سلام طويلة واستقرار متصل ، وعاشت شعوب البلاد التى فتحها العرب نحو خمسة قرون بعيدة عن أن تمتد اليها يد أجنبى حتى عصر الحروب الصليبية ، وهذا هو المقصود من القول بأن العرب حققوا ما يسمى بالسلم الإسلامى . الذى أظل هذه المنطقة من الخليج إلى المحيط .

وكما قلنا سابقا — حمل العرب إلى هـذه البلاد ذات الحضارات

والمدنيات المادية القديمة مبادىء روحية جديدة تدعو إلى المحبة والإخاء والمساواة والحرية تتمثل فى عقود الصلح التى عقدها العرب مع شعوب العراق والشام ومصر والمغرب . حيث كفلت لهم هذه العقود حرية الاعتقاد وحرية النفس والمال ، ومن التقاء المادى بالروحى نشأت حضارة متجانسة إلى حد كبير من حيث التقاليد والعادات والمقومات الفكرية والروحية تعتمد أساسا على انتشار اللغة العربية والدين الجديد .

الهجرات العربية الإسلامية :

وصحب استقرار الأوضاع فى هذه المنطقة بعد تطهيرها من الفرس والبيزنطيين هجرات من شبه الجزيرة إلى البلاد التى دانت للعرب حيث عملوا على الاستقرار فيها ، وقصدت هذه الهجرات أول ماقصدت بلاد العراق ، ثم امتدت إلى الشام ، ثم تدفقت إلى وادى النيل شمالا وجنوبا حتى وصلت إلى سهول السودان ، وكانت هناك قبائل أخرى قد استقرت فى مصر مثل بنى هلال وسليم ورباح ثم غادرتها إلى شمال أفريقيا فى برقة وطرابلس وتونس والجزائر حتى بلغت بلاد المغرب ، بل وصلت إلى مصب السنغال جنوبا وإلى بلاد الأندلس فى شبه جزيرة أيبريا شمالا . وأدت هذه الهجرات إلى تأكيد التأثير العربى فى المنطقة ودخلت شعوب هذه البلاد فى دين الله أفواجا ، وإذا بالوطن العربى الكبير وقد امتد من المحيط إلى الخليج فى تلك الصورة التى تناقلناها عبر القرون .

الآثار السياسية لانتشار الإسلام :

شكلت المناطق التى انتشر فيها الإسلام حتى القرن الثالث الهجرى (التاسع الميلادى) مجتمعا مترابطا من الناحية السياسية إلى حد كبير لأكثر من ستة قرون ، حتى أصبح ذلك الترابط والتماسك مرحلة من تراث العرب وتفكيرهم وتقاليدهم ، عاشت معهم إلى وقت ليس بالقصير .

وقد ساعد على هذا التماسك عوامل عدة من أهمها ترحيب أهل البلاد المفتوحة بالجيوش العربية وبالدين الجديد الذى رأوا فيه خلاصا من طغيان الفرس والبيزنطيين ، خاصة بعد أن اتضحت لهم خصائص النظم الجديدة فى الحكم والتى أتى العرب بمثالياتها وشعاراتها فنجد مثلا أن تحديد مكانة السلطة العليا فى المجتمع الجديد — على اتساعه — كان فى شخصية الخليفة الذى دان له الجميع بالولاء العميق خاصة لارتباطه بمعان دينية وتقاليد متوارثة منذ عهد النبى محمد ، وكان ترابط المسلمين أمراً يحض عليه الدين كذلك بنصوصه مثل قول الله عز وجل « إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون » وعلى هذا فقد دان جميع سكان المنطقة بالولاء والطاعة لخليفة المسلمين — لافرق فى هذا بين مسلم وذمى ، مما أدى إلى ترابط وانسجام كبيرين فى العلاقات داخل الدولة الإسلامية الكبرى .

أضف إلى هذا ما عرف وتأكد من تسامح المسلمين ومرونة معاملاتهم طالما لم يكن فى ذلك اعتداء على حدود الدين البينة . وقد استفاد العرب إلى مدى بعيد مما كان سائداً فى الكثير من البلاد المفتوحة من نظم سياسية وإدارية لا تتعارض مع أحكام دينهم ، وأقاموا حكوماتهم فى تلك البلاد متفقة غالبا مع نظمها النابعة من بيئتها وثقافتها لفترة طويلة من الزمن .

والعرب بالإضافة إلى ذلك فى حكمهم لتلك البلاد لم يشعروا أهلها بوطأة حكم الغزاة الفاتحين كما فعل الفرس والإغريق والرومان ، ولم ينكروا عليهم مواطنتهم على قدم المساواة مع اخوانهم العرب والمسلمين كما كان يفعل الإغريق والرومان عندما حددوا حقوق المواطنة وحصروها فى فئة معينة من الناس أغلبهم من الرومان أنفسهم مثلا ، بل ان النظام العربى الإسلامى أشرك أهالى تلك البلاد فى ضروب الحكم المختلفة فتولوا الأعمال الكتابية والإدارية والحسابية دون تفريق على أساس اختلاف لون أوعقيدة ، بل ان بعض المؤرخين مثلا يرى أن « الحكومة فى مصر بقيت قبطية فى حقيقتها عربية فى

ظاهرها أكثر من أربعين سنة ، ولم يحتفظ العرب الا ببعض المناصب العليا التى كان لابد لهم من الإشراف عليها(١). وتؤكد نصوص القرآن والحديث هذه المعاملة فتنادى مثلا « بأن لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى » كما أن التطبيق كان لايخرج عن النصوص إلى حد كبير ، وفى قصة عمرو بن العاص وابنه مع عمر بن الخطاب مثال صادق لهذا .

وكما يؤدى الترابط القائم على أساس من وحدة النظام السياسى وتجاوب النظم الإدارية مع حاجات وتقاليد الشعوب الداخلة فى الإسلام إلى وحدة فى الشعور والعمل فى تلك البلاد . فان وحدة التشريع الإسلامى التى انطوى تحتها المسلمون فى كافة أنحاء العالم الإسلامى آنذاك — بل والذميين الراغبين فى تلك المعاملة — قد أدت إلى توافق وانسجام إلى حد كبير بين تلك الشعوب ، حقيقة أنه كان للذميين أن يتقاضوا أمام زعمائهم الدينيين ، ونص القرآن على ذلك فى قوله « وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه » ولكن لم يكن هناك ما يمنع الذمى من أن يلجأ إلى القضاء الإسلامى إذا شاء ذلك ، وكان يسمح للمسيحيين واليهود أن يدخلوا المساجد للاحتكام لقضاة المسلمين ان هم أرادوا .

وهكذا نرى أن الشريعة الإسلامية كان لها دور فعال ورئيسى فى توحيد الثقافة العربية والترابط القومى بين شعوب وجماعات أصبحت تخضع لسلطة قانون سماوى واحد بالإضافة إلى العوامل الأخرى . ولكن التأثير الأوربى بعد ذلك استطاع أن يهدد ذلك الكيان المترابط — ولو إلى حين — وكانت أوربا قد ازدهرت ونمت فيها المدنية بدرجات كبيرة إذا هى قورنت بالبلاد الإسلامية فى عصور الانشقاق والفرقة والانعزالية التى أصابت هذه الشعوب بعد الازدهار الضخم للعرب وحضارتهم فى القرون الستة تقريبا التى تلت نشر الدعوة للدين الجديد .

---

(١) من مقال للدكتور حسن محمود عن الوحدة العربية الأولى وتحدياتها — كتاب المجتمع العربى لمجموعة الأساتذة ص ١١٧ .

الصليبيون والعرب :

وقبل أن ننتقل إلى الفترة الحديثة من تاريخ العرب يحسن بنا أن نشير إلى مرحلة هامة مرت بها هذه المنطقة من العالم بعد أن عملت المقومات والأسباب السابق ذكرها على صهرها جميعا فى عملية من تجانس الخبرات ووحدة الذكريات ، حتى أصبحنا لانرجع مفهوم « العربى » إلى قبيلة من قبائل شبه الجزيرة العربية ، بل ان العصبية القبلية قد بدأت تضعف ليحل محلها تدريجيا ذلك المفهوم الحضارى والثقافى لمعنى العربية ، هذه المرحلة الهامة هى مرحلة الغزو الأوربى لمنطقة الشام — أوما اصطلح على تسميته بالغزو الصليبى فى أواخر القرن الحادى عشر الميلادى .

وكان بعض أمراء أوربا قد فكروا فى الاستيلاء على هذه المنطقة لاعتبارات سياسية واقتصادية واتخذوا الدين ستارا لأهدافهم تلك : فقد بحث بعض هؤلاء الأمراء عن حل لصراع القوى فى بلادهم عن طريق ارسال غير المرغوب فى بقائهم فى بلادهم إلى حرب أو أخرى حتى يخلوا لهم الجو لتنفيذ مآربهم فى سياستهم الداخلية ، كما كانت اسواق الشرق مطمعا لهذه الدول الأوربية — خاصة مدن ايطاليا التجارية ، فحرصت على الاستيلاء عليها حتى أنها بعد ان اشتركت فى الحروب مع العرب لم يكن يعنيها كثيراً الاحتفاظ ببيت المقدس بقدر ماكانت تحرص على الاحتفاظ بعكا وطرابلس والشام ودمياط والاسكندرية ، كما طمع بعض ملوك وأمراء أوربا فى إنشاء امارات وممالك لهم فى الشرق تأكيدا لمقدرتهم واظهارا لقوتهم ولم يكن للأسباب الدينية التى ادعوها أى أثر من حقيقة بدليل اجماع المؤرخين الأوربيين المحدثين أنفسهم على أن الحجاج المسيحيين لم يثبت أنهم لاقوا عنتا أو تعصبا ضدهم عند زياراتهم لكنيسة القيامة وغيرها من الأماكن المقدسة التى كانت تقع داخل الأراضى العربية الإسلامية(١) .

---

(١) سفيه غلشوز : الحركة الصليبية الجزء الأول ص ١٧ — ٤٣ .

وهكذا شاءت الأقدار للعرب أن واجهوا خطراً مشتركا كان عليهم أن يتخلصوا منه — ورب ضارة نافعة — فقد كان العرب قد تفرقوا شيعا وأحزابا مرة أخرى تحت وطأة الشعوبية القديمة بتأثير دعاوى الفرس والأتراك، وكان ظهور عدو مشترك عاملا هاما ليجمع كلمتهم ويوقظهم إلى ما كان يتهددهم من أخطار فاندفعوا فى حرب مريرة بزعامة عماد الدين زنكى فى الشام والعراق ثم من بعده أبنائه واتباعه أمثال نور الدين وصلاح الدين لتخليص البلاد من هذا العدو . واستطاع صلاح الدين أن يستنصر مصر والمصريين فاجتمعت له مصر والشام وحلب والجزيرة والموصل وتمكن من أن يقود جيوشه إلى النصر ، حتى كانت الموقعة الفاصلة فى حطين سنة ١١٨٧ فانعقد له النصر ، ولم تجد محاولات الأوربيين المتتابعة فى ذلك الوقت لاسترداد مواقعهم .

وكما كان لمصر دورها الرئيسى والفعال فى تخليص العرب جميعا من أخطار الأوربيين ، كان لها أيضاً دورها الذى لاينكر فى التخلص من المغول ، وصد غاراتهم عن مناطق الشام . ولكن ذلك الصراع المرير ضد قوى متعددة وقادرة كان قد أنهك قوى العرب بالرغم من انتصاراتهم فلم يستطيعوا مقاومة الزحف التركى العثمانى لفترة طويلة فوقعت البلاد العربية الواحدة تلو الأخرى فى يد الأتراك عن طريق الحرب كما حدث فى مصر والشام والعراق واليمن أو مجرد الاستسلام دون مقاومة كما حدث فى طرابلس الغرب وتونس ، والجزائر فى أوائل القرن السادس عشر.

الأتراك العثمانيون والعرب :

استطاع العثمانيون أن يبسطوا نفوذهم على العالم العربى طوال أربعة قرون حتى الحرب العالمية الأولى ، ولم يكن العثمانيون أهل علم وثقافة بقدر ماكانوا أهل حرب ، خاصة فى بداية حياتهم السياسية ، فهم لم يؤثروا فى العرب بقدر ما تأثروا بهم وبلغتهم ودينهم وحضارتهم — حتى كانوا

ينقلون المصانع والحوانيت من مصر إلى بلادهم بما فيها ومن فيها، وأدى ذلك إلى تأخر ركب الحضارة العربية . وركون العرب إلى حياة الاستسلام وعدم الاكتراث بمجريات الأمور حتى ساد بينهم الجهل والتراخى بالإضافة إلى فقدان استقلالهم السياسى .

وزاد الحالة سوءاً ما انتاب العثمانيين أنفسهم من ضعف وهوان فلم يستطيعوا أن يصدوا عن المنطقة اعتداء معتد أو طمع غاصب ، فأصبحت البلاد العربية نهبا ضائعا لأطماع أوربا ومخططاتها الاستعمارية . فكانت فتوحات نابليون بونابرت فى مصر والشام التى بدأت عام ١٧٩٨ واستمرت ما يقرب من ثلاث سنوات ، ثم كانت اعتداءات الإنجليز ابتداء من القرن التاسع عشر ولم ينحسر هذا العدوان عن جميع البلاد العربية بعد .

وكان لابد على العرب والحال كذلك أن يعملوا على تخليص بلادهم من هذه الأخطار الاستعمارية دون اعتماد على العثمانيين ، بل والتخلص من حكمهم أولا حتى يمكن لهم أن يلتفتوا لصد غزوات وأطماع الأوروبيين المتجددة وظهرت خطوات هذا التخلص فى عدة حركات مثل الحركة الوهابية فى نجد والحركة الزيدية فى اليمن — وهى على اتسامها بالدين ، وركونها إلى الارتباط بتقاليد اجتماعية وسياسية بالية إلا أن دورها لاينكر ضد العثمانيين كذلك أخذت الحركات القومية العربية فى تنظيم صفوفها ضد الحكم التركى فى الشام والعراق على وجه الخصوص ، وساعدها على ذلك — ولو بطريق غير مباشر — ارتباط الأتراك واعتزازهم المتزايد بالقومية الطورانية بعد ثورة سنة ١٩٠٨ ، حيث شعر العرب بضرورة مواجهة التعصب التركى الذى كان يدعو لسيادة الترك على جميع الشعوب الأخرى الأعضاء فى الامبراطورية العثمانية مع التخلص من المؤثرات العربية ، بل محاولة تتريك الولايات العربية وجعل اللغة التركية هى اللغة الرسمية فى المدارس والمحاكم وغيرها .

وكما هى العادة — كان على مصر أن تأخذ دورها التاريخى فى تلك المعركة ،

فكانت حملات ابراهيم باشا بن محمد على والى مصر إلى بلاد الشام والتى استطاع خلالها أن يهدد الدولة العثمانية فى عقر دارها — وبصرف النظر عن أهداف فتوحات ابراهيم باشا ودوافعه الحقيقية بها(١) فان الحركة القومية العربية لاشك قد استفادت منها إلى حد لاينكر وان كان بطريق غير مباشر ذلك نظام التعليم المصرى الذى أدخله ابراهيم باشا إلى بلاد الشام ابان حكمه كان نظاما سمحا أتاح للمسيحيين حرية التعليم وفق رغباتهم وفى مدارسهم الخاصة — على عكس العثمانيين الذين كانوا يفرضون نظما تركية معينة للتعليم على جميع أهل الامبراطورية تركا كانوا أو عربا . وأتاحت هذه النظم المصرية السمحة فرصة استعانة المسيحيين فى الشام بالبعثات التربوية والتبشيرية الأمريكية والفرنسية ، وكان لها آثار قوية على الحركة الفكرية العربية . وفى هذا يقول جورج انطونيوس :

« فتح حكم ابراهيم السمح الباب للمشاريع التبشيرية الغربية مما أعطى فرصة لقوتين عاملتين هما الفرنسيون والأمريكيون ، اللذين قدر لهما أن يكونا الآباء الروحانيين للبعث العربى(٢) » .

ولكن تدخل الدول الاستعمارية فى ذلك الوقت (انجلترا وفرنسا وروسيا) حال بين ابراهيم باشا وبين بلوغ مقاصده ، وكان فى ذلك ضربة قاصمة للحركة العربية القومية ، وفى ذلك يقول دكتور حازم زكى نسيبة : « جاء

---

(١) يروى جورج انطونيوس G. Antonius فى كتابه يقظة العرب The Arab Awakening نقلا عن دوين G. Deuin فى مؤلفه La Mission du Baron Boislecomte أن ابراهيم باشا كان يفاخر دائما بأنه عربى فيقول « جئت إلى مصر طفلا فأصبح دمى عربيا كلية تحت سماء مصر » ، ويقول دوين ان ابراهيم تحدث صراحة عن أن هدفه كان « احياء الشعور القومى العربى وأن يغرس فى العرب الشعور الحقيقى بالوطنية وأن يشركهم فى حكومة الامبراطورية القادمة ، وأنه كان ينظر إلى آراء أبيه على أنها محدودة الأفق واستعمارية لا تناسب إلا حالة العبودية التى تردى فيها العالم العربى ، أكثر من ملاءمتها للوضع السياسى المستقل الذى كان يأمله لهم بعد وفاة محمد على » .

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٥ .

إخفاق مصر فى توحيد العالم العربى ابان النصف الأول من القرن التاسع عشر ، أكثر من صفعة سياسية لمقادير الشعب خلال سير تيقظه ، إذ كان سببا فى شقاق عقائدى بين الأجزاء الآسيوية والأجزاء الافريقية من العالم العربى ، لم يلتئم بعد حتى اليوم وكانت له نتائج بعيدة المدى ، لأنه وقع فى زمن كان العرب يجتازون أثناءه أخطر مرحلة من مراحل نموهم ، أى عندما كانت القيم والعقائد والأخلاق وضروب الولاء مختلطة ، متشابكة ، وكان المجتمع بجملته ، يعانى تجربة تجدد شامل كامل »(١).

وبالرغم من هذا فان الجهود المصرية فى بلاد الشام لم تذهب سدى كلية بل على العكس من ذلك : أدت تلك الحركة إلى نهوض شامل فى ميدان التعليم على وجه الخصوص ، وتمكن عرب الشام من الاتصال بالفكر الغربى فتأثروا به من الناحية السياسية إلى حد لاينكر ، ويتضح هذا مثلامن المناقشات التى دارت فى اجتماعات المؤتمر العربى المنعقد فى باريس عام ١٩١٣ وحضره مندوبون من عدة بلاد عربية ومن عرب المهجر فى أمريكا كذلك ، فيقول السيد عبد الغنى العربى فى خطابه إلى المؤتمر : « ان الجماعات فى نظر علماء السياسة لاتستحق هذا الحق إلا إذا جمعت ، على رأى علماء الألمان ، وحدة اللغة ووحدة العنصر ، وعلى رأى علماء الطليان وحدة التاريخ ووحدة العادات ، وعلى مذهب ساسة الفرنسيين وحدة المطمح السياسى ، فاذا نظرنا إلى العرب من هذه الوجوه الثلاثة علمنا أن العرب تجمعهم وحدة لغة ووحدة عنصر ووحدة تاريخ ووحدة عادات ووحدة مطمح سياسى فحق العرب بعد هذا البيان ، على رأى كل علماء السياسة ، دون استثناء ، حق جماعة ، حق شعب ، حق أمة(٢) » .

ومن هذا يتضح مدى التأثير الغربى على الفكر القومى العربى آنذاك

---

(١) د. حازم زكى نسيبة : ص ٧٢ من الترجمة العربية لسنة ١٩٦٢ .
(٢) استشهد بها نفس المرجع السابق ص ٨٤ .

الذى ظهر أكثر ما ظهر بين مسيحيي الشام باعتبار صلاتهم الوثيقة بالثقافة الغربية . والتأثر بتياراتها ، وقراءة ماكتبه المستشرقون فى القرن التاسع عشر عن تاريخ العرب الحضارى .

هذا ويقسم دكتور حازم زكى نسيبة الأطوار التى مرت بها القومية العربية إلى خمس مراحل هامة هى :

(١) فكرة دولة اسلامية متحدة ، دعى اليها الكواكبى كرد فعل لتوسعات الغرب فى البلاد الإسلامية .

(٢) فكرة اللامركزية حيث هدف العرب إلى تكوين حكومة محلية قوية تدين بولاء اسمى للباب العالى ، حتى يتيح لهم ذلك قوة يدفعون بها الاعتداءات الأوربية عليهم — خاصة أمام عجز الباب العالى عن القيام بحمايتهم وحماية أراضيهم .

(٣) الحركة المضادة لقيام القومية الطورانية الهادفة إلى سياسة التتريك ، حيث احتلت اللغة العربية المقام الأول فى النزاع العربى — التركى « إذا كان المسلمون العرب خلافا لما هو شأن الشعوب البلقانية التى كانت تتمتع باستقلال ثقافى كامل ، بسبب من تنظيماتها الدينية والطائفية مكرهين على التعلم فى المدارس الحكومية حيث تسيطر اللغة التركية على جميع مواد التعليم ، ولم يبق للعربية من ملجأ إزاء تلك السياسة التعليمية ، إلا فى المؤسسات التبشيرية المسيحية ، ومن هنا كان إسهامها العظيم فى النهضة العربية »(١) .

وقد أطلق نسيبة على هـــذه الأطوار الثلاثة صفة السلبية باعتبار أنها كانت دائما تعبيراً عن الخوف من الاستعمارى الأوربى

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٨١ .

الزاحف ، وعجز الدولة عن صده ، أوالحذر من نوايا الأتراك ومقاصدهم .

أما الطوران التاليان فهما تعبير عن ايجابية فى الفكر القومى العربى باعتبار أن :

(٤) المؤتمر المنعقد فى باريس سنة ١٩١٣ كان بمثابة اعداد عقائدى ونظرى لفكرة القومية العربية ، مع تأكيد الصفة العلمانية (الاهتمام بالقضايا الزمنية لا الدينية) للقومية العربية أمام دعاوى الفرقة بين المسلمين والمسيحيين .

(٥) مرحلة الثورة العربية الكبرى عام ١٩١٦ حيث « لم تعد القومية العربية فكرة مثقف منعزل ، ولا أنشودة شاعر ، ولاحلم سياسى ، لقد أصبحت حركة شعبية وقوة حية فى ضمير الشعب وكثيرون هم الشهداء الذين قدموا أرواحهم قربانا على مذبحها ، وكثيرون أيضاً هم الذين يقاتلون فى سبيل انتصارها وتحقيق عزتها ، كما أنها انقطعت ، منذ أمد بعيد عن التغنى بأمجاد الماضى البالية الغابرة ، الباهتة ، لتبرير نفسها ، واثبات حقها وقصة الثورة العربية عام ١٩١٦ ، حية ، ملهمة ، تستحق أن تكون مجدا قوميا ، كأى مجد قومى ، لأية أمة(١) .

وإذ نتفق مع دكتور نسيبة فى رأيه الخاص بالدور العظيم الذى أسهمت به المؤسسات التربوية المسيحية فى منطقة الشام ، إلا أننا يجب ألا نغفل المنبت الرئيسى لهذه القدرة ، وتلك العوامل التى أتاحت لها أن تأخذ دورها الطليعى فى النهضة العربية الشاملة : وهى سماحة النظم التعليمية المصرية واتساع أفق القائمين عليها ابان اتصال مصر بالشام بجهود ابراهيم باشا كما سبق بيانه .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٨٦ .

كما أن ما يذكره دكتور نسيبة عن مؤتمر باريس عام ١٩١٣ ، والأهمية الكبيرة التى يعلقها عليه كأحد علامات خمس فى طريق الحركة القومية العربية ، بل وما يعطيه اياه من صفة الخطوة الإيجابية الأولى التى أفعمت « بالحماس » . و « سلامة الاتجاه » فكرة القومية العربية ، يستلزم بعض الإيضاح : ففى هذا المؤتمر اتضحت بعض اتجاهات الفرقة بين العرب أنفسهم ، حيث لم تمثل مصر فى ذلك المؤتمر ، وعندما سأل الدكتور سيد كامل وهو محام مصرى عن امكانية حضوره للمؤتمر والمشاركة فى مناقشاته كمصرى أجاب السيد عبد الحميد الزهاوى — رئيس المؤتمر — بالآتى :

« اننا نحترم اخواننا المصريين ، ونحترم آراءهم ، وانتهز هذه المناسبة لأعتذر عن عدم اغتنام الفرصة لتحية الأمة المصرية . والآن نحيى اخواننا المصريين ونحترم آراءهم ، ونعترف بصراحة كدولة عربية عثمانية ولكن بما أن لمصر إدارتها الخاصة التى لاينفذ فيها الرأى العثمانى بينما لاينفذ الرأى المصرى فى إدارة الأراضى العثمانية ، فانى أرجو أن يكون ذلك سببا فى قصر مناقشة الأمور العثمانية الداخلية على أولئك الذين لآرائهم الحق فى التأثير على وضعهم (١) ».

وبالرغم مما قد يتطرق إليه الشك فى مغزى هذا الكلام من دواعى الفرقة والانعزال ، إلا أننا نلحظ فيها اعترافا بمصر كدولة عربية ، مع الإشارة إلى وجود قوتين أجنبيتين مسيطرتين على الأوضاع فى كل من مصر والبلاد العربية الأخرى ، ولكننا لانستطيع عموما أن نرقى بمثل هذا المؤتمر إلى مستوى الخطوة الإيجابية المفعمةبالحماس وسلامة الاتجاه على حد تعبير دكتور نسيبة .

أما نقطة الارتكاز الخامسة التى يعتبرها دكتور نسيبة ذات أثر كبير فى الحركة القومية العربية — وهى مرحلة الثورة العربية عام ١٩١٦ فهى أيضاً

---

(١) الأمير مصطفى الشهابى : محاضرات فى القومية العربية — تاريخها وأصولهاومراميها (القاهرة : جامعة الدول العربية — معهد الدراسات العربية ١٩٥٩) ص ٩٦ ، ٩٧

تدعونا إلى إعمال الفكر قليلا : ففى أثناء الحرب العالمية الأولى اقتاد البريطانيون المصريين إلى ميدان الحرب ضد الأتراك العثمانيين ، وكانت نفوسهم وأمانيهم غير راضية عن هذا . فقد كانوا يتوقون إلى التخلص من الاستعمار البريطانى الجاثم على صدورهم ويعتقدون فى قدرة الباب العالى على مد يد العون اليهم فى صراعهم ذاك — على الأقل من الناحية الأدبية ، وعلى افتراض رابطة الإسلام الذى يجمع بينهم .

وفى نفس الوقت حرص الباب العالى على المناداة بالحرب المقدسة والجهاد فى سبيل الله فدفع بأهل الشام والعراق لمحاربة الأوروبيين الكفرة ، وعلى عكس مشاعر وآمال المصريين — كان أهل الشام والعراق يتوقون إلى التخلص من السيطرة العثمانية حتى ولوكان الثمن باهظا فى طلب العون والسند من البريطانيين . وهكذا اصبح أصدقاء أهل الشام والعراق أعداء لمصر وقضيتها وأصبح من ينشد المصريون عونهم أعداء للشام والعراق ، حقيقة أن الهدف كان واحداً إلى حد كبير — وهو الحرية والتخلص من سيطرة المستعمرين — ولكن الطرق إلى ذلك كانت مختلفة — ان لم تكن متعارضة تماما.

مغامرة الشريف حسين :

حكم الشريف حسين منطقة الحجاز من قبل الباب العالى ، وكان تمتعه بالبعد عن الاستانة من أهم العوامل التى شجعته وأتاحت له فرصة التفكير فى الخروج عن سلطان العثمانيين ، والطمع فى تكوين امبراطورية عربية مترامية الأطراف يكون هو ملكها ، وإذا كان العرب فى الفترة السابقة للحرب العالمية الأولى تراودهم اتجاهات التحرر وتكوين حكومات تتمتع بالسيطرة المحلية على شئون كل إقليم على حدة ، فان حركة الشريف حسين عام ١٩١٦ كانت تهدف إلى خلق دولة عربية مستقلة يصول فيها الشريف حسين وأولاده ويجولون .

واغتنم البريطانيون هذه الفرصة فبعثوا سرا — فى سبتمبر عام ١٩١٤ —، برسول إلى عبد الله بن حسين ليتعرف على مدى استعداد والده للتعاون معهم إذا حدث ودخلت الدولة العثمانية الحرب فى جانب الألمان ضد بريطانيا ثم اتبعت ذلك بكتاب — بعد دخول تركيا الحرب فعلا فى جانب ألمانيا فى آخر أكتوبر عام ١٩١٤ — تتعهد فيه « إذا عاونت الأمة العربية انجلترا فى الحرب .. بمنع وقوع أى أذى على بلاد العرب ، وقد يمكن أن يتولى منصب الخلافة فى مكة والمدينة عربى من أصل عريق » ، ثم أخذ الإنجليز بعد ذلك فى إصدار بيانات متتابعة على لسان هنرى مكماهون — المعتمد البريطانى فى مصر — تهدف إلى تخدير العرب ، وبذل العهود المعسولة لهم ، ففى أوائل يونيو سنة ١٩١٥ « تعهدت الحكومة البريطانية بأن يكون الاعتراف بشبه جزيرة العرب دولة مستقلة تتمتع بالسيادة التامة فى الأراضى الإسلامية المقدسة شرطا من شروط الصلح ... وباستعداد انجلترا للترحيب بقيام خلافة عربية » .

وبناء على هذه الوعود وعلى الاتفاق بين فيصل بن حسين مع زعماء جمعيتى « الفتاة » و« العهد » الذى صدر فيما عرف باسم بروتوكول « دمشق» رسم الشريف حسين خطة عمله ، وحوى برتوكول دمشق النقاط الآتية :

(١) أن تعترف بريطانيا باستقلال البلاد العربية الواقعة ضمن الحدود التى تبدأ شمالا بخط مرسين — اطنه ممتدا إلى أرقة وماردين وجزيرة ابن عمر فحدود فارس (ايران) ، وشرقا حدود إيران حتى الخليج وجنوبا المحيط الهندى (ماعدا عدن التى تحافظ على وضعها الراهن (وغربا البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط حتى مرسين.

(٢) إلغاء الامتيازات الأجنبية .

(٣) عقد تحالف دفاعى بين بريطانيا والدولة العربية المستقلة .

(٤) منح بريطانيا الأفضلية فى الشئون الاقتصادية .

وفى صيف عام ١٩١٥ طلب الشريف حسين أن تعترف انجلترا باستقلال البلاد العربية من مرسين — أطنه حتى الخليج العربى شمالا ، ومن بلاد فارس حتى خليج البصرة شرقا ، ومن المحيط الهندى للجزيرة جنوبا ، يستثنى من ذلك عدن التى تبقى كما هى — ومن البحر الأحمر والبحر المتوسط حتى سيناء غربا « على أن توافق انجلترا على إعلان خليفة عربى على المسلمين » . ولم يتردد مكماهون فى الموافقة على هذا وان أحاط رده بالغموض والتسويف حيث أكد حسن نوايا بلاده تجاه العرب وموافقتها على قيام خلافة عربية . ولكنه رأى أن الحديث عن مسائل الحدود فى أوقات الحرب العصيبة غير مناسب ، لاسيما وأن بعض هذه الحدود مازالت بيد الأتراك ولم يعجب هذا القول الشريف حسين المتشوق إلى تأكيد حدود امبراطوريته المستقبلة ، فكتب إلى مكماهون ثانيا معبراً عن « ان هذه الحدود المطلوبة ليست لرجل واحد يمكن ارضاؤه ومفاوضته بعد الحرب ، بل هى مطالب شعب يعتقد أن حياته فى هذه الحدود وهو متفق بأجمعه على هذا الاعتقاد » . ولم ير مكماهون غضاضة فى أن يجيب هذا الشوق برسالة جاء بها ، لقد « أدركت من كتابكم الأخير أنكم تعتبرون مسألة الحدود من المسائل العامة الحيوية ، ولذا فانى قد أسرعت فى إبلاغ حكومة بريطانيا العظمى مضمون كتابكم . وانى بكامل السرور أبلغكم بالنيابة عنها التصريحات الآتية التى لاشك فى أنكم تنزلونها منزلة الرضى والقبول .. ان ولايتى مرسين والاسكندرونة وأجزاء من بلاد الشام الواقعة فى الجهة الغربية لولايات دمشق وحمص وحماة وحلب لايمكن أن يقال إنها عربية محضة ، ومن ثم يجب أن تستثنى من الحدود المطلوبة ونحن على استعداد للموافقة على تلك الحدود على أساس هذه التعديلات ودون تعرض للمعاهدات المعقودة بيننا وبين زعماء العرب .. وأما بخصوص الأقاليم التى تضمها تلك الحدود التى تستطيع بريطانيا العمل فيها بملء الحرية دون أن توقع ضرراً بمصالح حليفتها فرنسا ، فانى مفوض

من قبل حكومة بريطانيا أن أعطيكم المواثيق الآتية جوابا على كتابكم ».

(١) ان انجلترا مستعدة على أســـاس تلك التعديلات أن تعترف باستقلال العرب وتقديم المساعدة لهم فى الحدود التى اقترحها شريف مكة .

(٢) تحمى بريطانيا الأراضى المقدسة من كل اعتداء خارجى وتعترف بوحدتها .

(٣) تقدم بريطانيا للعرب عند الحاجة كل مساعدة أو نصيحة ممكنة وتعاونهم فى تشكيل أفضل أشكال الحكم فى مختلف البلاد العربية.

« أما بخصوص ولايتى بغداد والبصرة فان العرب يعرفون أن مركز انجلترا ومصالحها فيها تتطلب شكلا اداريا خاصا للمحافظة على تلك الأنحاء من الاعتداءات الخارجية ، وتأمين راحة واطمئنان السكان ، وتوطيد مصالحنا المشتركة فيها » .

وسعد الشريف حسين بهذا الرد وان أشار إلى أنه « رغبة فى تسهيل الاتفاق ، وخدمة الإسلام ، واجتناب كل ما من شأنه تعكير صفو المسلمين ، واعتمادا على صفات بريطانيا العظمى ومواقفها الحميدة فاننا نتنازل عن ضم مرسين واطنه إلى المملكة ، أما ولايتى حلب وبيروت وسواحلهما فهما ولايتان عربيتان خالصتان لافرق هناك بين مسلم ومسيحى عربى ، فكلاهما أحفاد جد واحد » .

ومن ثم سارعت الحكومة البريطانية إلى الموافقة فى ١٠ مارس عام ١٩١٦ على جميع مطالب الشريف — ولاضير عليها فى ذلك مادامت لن تحققها تماما — ورضى الشريف واقتنع بتلك الوعود وشرع ينفذ ما خطط له لإعلان الثورة على الأتراك وتهديد مراكزهم وخلخلة صفوفهم الخلفية فى وقت الحرب .

ولكن بريطانيا فى الوقت الذى كانت تبذل فيه الوعود للشريف حسين

وترضى آماله وطموحه كانت تعمل على تأكيد سيطرتها على البلاد العربية فى المفاوضات السرية بينها وبين فرنسا وروسيا لاقتسام الغنائم بعد انهيار الدولة العثمانية ، وانتهت هذه المفاوضات السرية بابرام الاتفاق المعروف باسم « سايكس — بيكو » فى شهر مايو عام ١٩١٦ ، والذى أذاعته الحكومة البلشفية فى ٢١ فبراير عام ١٩١٨ .

وبمقتضى هذا الاتفاق حصلت روسيا على الولايات الأربع المجاورة للحدود الروسية التركية التى تشكل أرمينيا التركية ، فضلا عن بعض الأقاليم الواقعة بين البحر الأسود وإقليم الوصل ، كما حصلت فرنسا على الشريط الساحلى لبلاد الشام وولايتى اطنه ومرسين ، بالإضافة إلى مناطق نفوذ أخرى شملت الموصل ودمشق وحمص وحماه وحلب ، اما انجلترا فاستولت على بلاد ما بين النهرين والبصرة وبغداد بالإضافة إلى حيفا وعكا على البحر الأبيض المتوسط ثم مناطق نفوذ أخرى فى العراق وان كانت الدول الموقعة على الاتفاق قد سمحت بقيام دولة عربية مستقلة أوحلف دول عربية تحت رئاسة رئيس عربى فى مناطق النفوذ الفرنسى والبريطانى ، كما نص الاتفاق على انشاء إدارة دولية فى منطقة فلسطين ، وبذا تكون أحلام الشريف حسين قد ضاعت هباءا واكتشف — بعد فوات الأوان — انه لم يكن أكثر من ألعوبة فى يد بريطانيا التى استخدمته وامكاناته لإضعاف مركز تركيا فى الحرب العالمية الأولى . وكان هومن السذاجة بحيث صدق كل وعودها وصار يحلم بامبراطوريته العربية المترامية الأطراف والتى يحكم فيها كخليفة عربى للمسلمين أجمعين.

ولم تقتصر سخرية انجلترا من الشريف حسين وتفكيره عند هذا الحد ، بل أصدرت فى ٢ نوفمبر سنة ١٩١٧ تصريحا تعهدت فيه لزعماء الحركة الصهيونية بانشاء وطن قومى لهم فى فلسطين — وهو التصريح المعروف باسم وعد بلفور والذى نص على :

« ان حكومة جلالة الملك تنظر بعين العطف إلى تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين ، وستبذل جهدها لتسهيل تحقيق هذه الغاية على أن يفهم جليا أنه لن يؤت بعمل من شأنه أن يغير الحقوق المدنية والدينية التى تتمتع بها الطوائف غير اليهودية المقيمة الآن فى فلسطين ، ولا الحقوق أو الوضع السياسى الذى يتمتع به اليهود فى البلدان الأخرى » . وقد وافق على هذا التصريح قبل إعلانه كل من الولايات المتحدة الأمريكية وفرنسا وايطاليا .

وبعد — فهذه صورة سريعة لمغامرة الشريف حسين عام ١٩١٦ . والتى جرت الفشل فى أعقابها مباشرة ، ومازلنا حتى اليوم نعانى من الكثير من مخلفاتها ، مما لانستطيع معه أن نتفق مع رأى دكتور حازم نسيبة من أنها كانت انتفاضة قومية كبرى أو « قصة ملهمة تستحق أن تكون مجداً قوميا » ، على حد تعبيره .

الشعوبية الحديثة

وبنهاية الحرب العالمية الأولى تم انهيار الإمبراطورية العثمانية ووزعت انجلترا وفرنسا بلاد العرب فيما بينهما بعد ما قنع الشريف الطامح من الغنيمة بالإياب ، وكان على العرب أن يجنوا أشواك الخطيئة التى اقترفها الهاشميون بتحالفهم مع البريطانيين ولم يعتبروا بما كانت مصر والمصريون يقاسونه من مذلة الاستعمار البريطانى العنيد ، وبذا أصبحت مصر والسودان وشرق الأردن والعراق والخليج العربى وجنوب الجزيرة العربية واقعة تحت النفوذ البريطانى ، بينما سيطرت فرنسا على سوريا ولبنان وبلدان المغرب العربى وقنعت ايطاليا بليبيا .

الفرعونية فى مصر :

وأثارت هذه الفرقة بين العرب شرقى قناة السويس واخوانهم فى غربها

شجان المصريين وحنقهم بل واستخفافهم بامكانيات وعرب المشرق ،حتى ان عبد الرحمن عزام عندما خاطب سعد زغلول باشا عن « وحدة العرب» أجابه الأخير بقوله « إذا جمعت صفرا إلى صفر ، فماذا تتوقع أن تكون النتيجة ؟(١)» ، وهكذا أخذت الفرقة تزداد ايغالا بين أبناء الوطن العربى ، يغذيها اختلاف الخبرات التاريخية فى العصر الحديث ، ويغذيها الاستعمار بشتى وسائله التعليمية والدعائية ، وما فتىء ينتهز كل فرصة ممكنة لتأكيد ذلك فى النفوس . ولنضرب لذلك مثلا باكتشاف مقبرة توت عنخ آمون فى مصر فى العشرينات حيث عمل الإنجليز على تضخيم هذا الاكتشاف ودعوة المصريين إلى تذكر مجد أجـــدادهم الأبعدين من الفراعنة ونسيان هذه الحقبة الحديثة من اتصالهم بالعرب ، ونجح الاستعمار فى ذلك إلى حد لاينكر حيث ظهرت كتابات وقصص ومسرحيات تمجد التاريخ القديم وتنادى بعودة الروح الفرعونية إلى مصر وحضارتها .

وساعد مثل تلك الحركة فى مصر أن الدعوة العربية فيما كانت على يد فئة من الصحفيين السوريين واللبنانيين المسيحيين الذين كانوا قد فروا إلى مصر هربا من قسوة السلطان عبد الحميد وتعصبه ، وبالرغم من اقامتهم فى مصر لم ترق كتاباتهم وتحركاتهم واتصالاتهم عن مستوى الشبهات ، حتى لقد هاجمهم مصطفى كامل باشا — وكان من أوائل العاملين فى نطاق الحزب الحزب الوطنى على تخليص مصر من قبضة البريطانيين — صحيفة « المقطم » لمساندتها لآراء المستعمرين ، ورأى فى الموارنة فئة تخدم سلطات الاحتلال فى مصر والسودان وتتعاون معها إلى حدود بعيدة ، كما حرص عبد الله النديم — وكان من دعاة النهضة الإسلامية والتحرر من الاستعمار الأوربى — على أن يذكر هؤلاء الموارنة أكثر من مرة بأصلهم العربى وباخوتهم للمصريين

---

(١) نقلها عن أبى خلدون ساطع الحصرى — أحمد طربين فى مؤلفه (الوحدة العربية (١٩١٦ — ١٩٤٥) » (القاهرة : جامعة الدول العربية — معهد الدراسات العربية — ١٩٥٩) ص ١٨٩ .

وذهب ذلك هباء كما تحدثت مارسيل كولومب Marcel Colombe في مقالها فى صحيفة الشرق الحديث الإيطالية Oriento Moderno عام ١٩٢٥ عن مصطفى كامل فقالت إنه يرى أن « المسلمين المصريين هم بدون نزاع مصريون ومعظمهم من أصل فرعونى ولم يكن أهم المدافعين عن العروبة أكثر من دخلاء مخادعين ومنافقين وأشد خطراً عن الأعداء الظاهرين للإسلام ، ودعى إلى اسكاتهم ومحاربة فكرة « الخليفة » العربى لأنه سيكون ألعوبة فى يد قوة أجنبية ، ويسلمون مصر بالتأكيد لمحتليها»(١).

ويصور مصطفى كامل صورة البدء فى تلك الحركة التى خدع بها بعض المثقفين فى مصر فحاولوا المناداة على حد تعبير أمين فارس : « بعظمة مصر الفرعونية وفراعنتها العظام ، وآلهتها الخالدين ، وإلى الانفصال عن العرب وحضاراتهم وأصروا على أن لمصر كيانها الإنسانى والحضارى والتربوى الخاص ، ولم يربطها بالدول العربية غير روابط ضعيفة كان من أهمها الدين وكانت الديانة تتقلص من الحياة الاجتماعية فى هذه الأزمنة الحديثة ، أما اللغة وحدها فلا تجعل أولئك الذين يتحدثونها أمة (٢) » .

وظلت هذه النزعة تؤكد نفسها بين كتاب مصر ، ويشجعها الأوربيون عموما والبريطانيون خاصة ، حتى لقد أصبحت محورا للمناقشات المفتوحة العلنية بين بعض كتاب مصر والعرب كتلك التى أوردها أبو خلدون ساطع المصرى على لسان طه حسين وما نقله عنه أمين فارس أيضاً عن مقاله فى جريدة الأهرام (عدد ١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٢) . حيث تحدث طه حسين عن احتفاظ مصر بمصريتها الصميمة عبر التاريخ ، ولم ينجح أى مستعمر مهما

---

(١) Colombe, Macel, L'evolution de l'Egypte : 1924 — 1950, (Paris, 1951), p. 165

(٢) Paris, N.A. and Hussyn, M.T., The Crescent in Crisis: An Interpretive Study of the Modern Arab World, (Lawrence, U.S.A. : University of Kansas Press, 1955), p. 137.

بلغت قوته من أن ينال طابعها المصرى ومقوماتها الأساسية بأى تغيير أوعدوان، فهى قد طردت الفرس وصهرت المقدونيين ومصرتهم ، ومنذ ذلك الحين وهى تستوعب أى غاز لأراضيها وتصهره وتمصره ، وبذا وجب على المصريين المحدثين أن يستلهموا تاريخهم المجيد .

ولكن هذه الحركة التى استطاعت أن تعيش حتى قرب نهاية الأربعينات من هذا القرن قد أخذت فى الاندثار تدريجيا لضعف مقوماتها الحقيقية ، ولأثر الإسلام فى نفوس المصريين الذين يربطون بينه وبين العرب إلى حد كبير ، ثم إن الوعى القومى فى مصر — خاصة بعد تخلصها من الاستعمار البريطانى — قد فتح أعين مصر قادة وشعبا على مصالحهم الحقيقية وارتباطهم الطبيعى باخوانهم العرب فى كل مكان ، كما كان لمشكلة فلسطين ووجود عدو مشترك يهدد البلاد العربية من النيل إلى الفرات أثر بالغ فى ترابط العرب ووحدة مصالحهم .

وظهر ذلك الوعى بوضوح منذ الأيام الأولى لثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ حيث لم يعد المصريون يرون غضاضة فى استلهام تاريخهم القديم وما فيه من عظمة وفخار ، جنبا إلى جنب مع ارتباطهم بواقعهم العربى المعاصر فيقول على ماهر — رئيس وزراء مصر بعد ثورة ٢٣ يوليو عام ١٩٥٢ فى حديث إلى جريدة الأهرام فى ١٥ نوفمبر من نفس السنة — إن أهدافا متشعبة ساعدت على سلسلة متتابعة من الانتفاضات .. كانت فى مجموعها صيحات عالية فى وجه الطغيان والخيانة من أى منبع أو أصل أتت، وكانت بمثابة برهان لاينكر على أن ميراثنا من الحضارات التليدة مازال يجرى فى دمنا ، وان ملايين المصريين هم ورثة العظمة التى ظهرت راسخة على شاطىء النيل : ماصنعه الفراعنة الجبابرة ، وما قدمه العرب العظام(١).

---

(١) الأهرام (١٥ نوفمبر سنة ١٩٥٢) .

ثم جاء ميثاق العمل الوطنى فى الجمهورية العربية المتحدة مؤيدا لهذا الاتجاه العربى فيقول :

« ان الذين يحاولون طعن فكرة الوحدة العربية من أساسها متعللين بقيام خلافات بين الحكومات العربية ينظرون إلى الأمور نظرة سطحية .

ان مجرد وجود هذه الخلافات هوفى حد ذاته دليل على قيام الوحدة

ان هذه الخلافات تنبع من الصراع الاجتماعى فى الواقع العربى .. واللقاء بين القوى التقدمية الشعبية فى كل مكان من العالم العربى والتجمع الذى تقوم به العناصر الرجعية والانتهازية فى العالم العربى هو الدليل على وحدة التيارات الاجتماعية التى تهب على الأمة العربية وتحرك خطواتها وتنسقها عبر الحدود المصطنعة .

ان التقاء القوى التقدمية الشعبية على الأمل الواحد فى كل مكان من الأرض العربية وتجمع القوى الرجعية على المصالح المتحدة فى كل مكان من الأرض العربية هو فى حد ذاته دليل على الوحدة أكثر ما هو دليل على التفرقة » .

ثم نص إعلان الدستور الصادر فى مارس سنة ١٩٦٤ فى مادته الأولى على أن « الجمهورية العربية المتحدة جزء من الأمة العربية » .

الفينيقية فى لبنان :

وكما استطاع الاستعمار البريطانى أن يستفيد من توجيه الفكر فى مصر ولو إلى حين — نحو النزعة الشعوبية الفرعونية ، فقد حاول الاستعمار الفرنسى أن ينهج نفس الطريق فيخاطب نفس النزعة فى نفوس اللبنانيين ، مذكرا اياهم بأمجاد الفينيقيين القدامى ، ومحاولا الفصل بينهم وبين الاتجاه العربى العام واعتمدت الدعوة الانفصالية أصلا على انتماء الفينيقيين إلى أجناس وحضارة البحر الأبيض المتوسط مع كل ماكان لهذه الحضارة من روائع ومفاخر.

ودعم هذا الاتجاه ماكان سائداً من مشاعر عند بعض المسيحيين — خاصة طائفة الموارنة — بضرورة الابتعاد قدر الطاقة عن الركب العربى العام الذى يشكل المسلمون فيه الأغلبية . فعندما وقف فيصل بن الشريف حسين أمام مؤتمر الصلح فى باريس مطالبا باستقلال ووحدة البلاد العربية الآسيوية بما فيها لبنان أسرع وفد ماروني لبنانى إلى هناك بايعاز من الفرنسيين ليعارض فى مطالب فيصل ويطلب اشراف الفرنسيين على لبنان ومنتقداً وضع لبنان المتحضر تحت الإدارة البدوية للحجاز ، وينقل لويد جورج Lloyd George من خطاب الأب الماروني : « .. وحتى لواختلف رأيي ورأى زملائى مع رأى الانتداب (فرنسا) فاننا كنا سنعتبره واجبا علينا أن نظل فى مهمتنا للسلام وهى دعوة فخاماتكم — فى ضوء الوثائق المقدمة — إلى اسناد إعادة بناء سوريا المتحدة المستقلة إلى فرنسا »(١).

هذا ويحاول البرت حوراني أن يحلل وضع لبنان مرجعاً تلك الاتجاهات إلى خوف اللبنانيين من أن يصبحوا بمثابة جزيرة صغيرة من المسيحيين وسط بحر واسع من المسلمين لارتباط العروبة فى أذهانهم بالإسلام إلى حد كبير فيقول :

« ربما نظر غالبية المبشرين والموظفين الفرنسيين فى الجيل الأخير إلى العروبة على أساس أنها حركة اسلامية قبل كل شيء ، حيث لن يستطيع المسيحيون أن يجدوا لهم مكانا ، وعلى هذا فقد حاولوا أن يجعلوا من لبنان مكاناً آمنا للمسيحيين ، وربما استطاعوا أن تكون لهم حياة قومية خاصة بهم ونزعتهم هذه تقررها عقيدتهم المسيحية من ناحية ، وشعورهم بواجبهم التاريخى نحو فرنسا من ناحية ثانية ، ومفهوم للمصالح الفرنسية من جهة ثالثة(٢)» .

---

(١) Lloyd George, David, The Trath about the Peace Traeties (London : Victor Gollens. 1938), Vol II. pp. 1050-1056.

(٢) Hourani, A.H., Syria and Lebanon : A Political Essay, (London : Oxford University Press, 1945), p. 135.

ولكن هذه النزعة بالرغم من اعتمادها على عوامل دينية غذاهاالاستعمار الفرنسى بالذات ، إلا أنها أخذت فى الأفول تدريجيا وان ظل يوجد حتى اليوم من يعتنقها ، ونلحظ ذلك التطور فى مفهوم أحد أعلام لبنان — السيد بشارة الخورى — الذى كتب فى جريدة « البشير » اليومية اللبنانية فى العاشر من يناير عام ١٩٢٠ يقول « اننا لانستطيع تصور قوميتنا كاملة دون أن نعطى فيها مكانة الشرف لفرنسا — التى تستحقها » ، ولكن هذه النزعة تختفى عام ١٩٣٧ حيث يعود بشارة الخورى إلى القول « وحدة العرب أنشودة لبنان ، ولايستطيع اللبنانيون أن يعيشوا فى استقلال وحرية بدونها» ، وان كان يحترس بعد ذلك فينادى بأن تتخذ هذه الحركة الوحدوية طابع التحالف بين البلاد العربية بعضها وبعض ، حيث يحتفظ كل بلد باستقلاله وإدارة شئونه الداخلية(١).

وبالرغم من الدور الفعال الذى لعبه المسيحيون فى احياء التراث العربى القديم والإشادة به . إلا أن نزعات الكثيرين من مسيحيى لبنان بالذات من الناحية السياسية لما تزل على درجة عالية من الانفصالية الشعوبية ، فيحدثنا البرت حورانى مرة أخرى عن ذلك فيقول :

« ... وحتى لوأصبح أعضاء الأقليات قوميين عربا — كما يفعل عدد كبير منهم فانهم ينتهجون قوميتهم تلك مع الاختلاف ، فليس عليهم فقط أن يؤكدوا نقاطا مختلفة عما يؤكده المسلمون فى البرنامج القومى . بل يرون أن عليهم واجبا خاصا يجب تنفيذه فى تلك الحركة . فمثلا يعتقد بعض القوميين المسيحيين أن عليهم واجب نقل المدنية الغربية إلى العرب . وهذا الشعور بواجب خاص يظهر الاختلاف ان لم يكن التعارض»(٢) .

وبعد — فهذه نبذة وجيزة عن حركتين من أهم الحركات الانفصالية

---

(١) أحمد طربين — فى كتابه سابق الذكر ص ٦٦ .
(٢) Hourani, Opcit., p.p 128 — 129.

التى اتضحت فى العالم العربى للشعوبية الحديثة ، التى مازالت تظهر بين الحين والحين ، وان اتخذت صورا أخرى تعتمد على عوامل بعضها اقتصادى وبعضها اجتماعى.

وكما يتضح من دراسة العوامل السياسية عموما مدى ما للروابط السياسية والدستورية والتاريخ المشترك ووحدة التجارب من آثار قوية على الوعى السياسى المشترك لقومية من القوميات ، فقد لاحظنا فى دراسة المجتمع العربى آثار تلك العوامل بدرجات متنوعة خلال عصور التاريخ العربى القديم والإسلامى والعثمانى والحديث ، كما اتضحت جهود مصر دائما ومبادأتها فى جمع الشمل العربى وتخليصه من أعدائه الخارجين والداخلين على حد سواء ، وبالرغم من صرخات الشعوبية والانعزالية التى كثيراً ماهددت وحدة الفكر العربى فقد استطاعت العوامل الموضوعية والعاطفية أن تحيدها إلى حد كبير ، وان تركت مكانها لقوى أشد خطرا مازال المجتمع العربى يعانى منها الكثير — وهى صراع الزعامة فى الوطن العربى وتغلب المصالح والأهواء الشخصية على الأهداف العليا والمبادىء المشتركة .

ولعل ما يعانيه العرب حاليا يمثل ظاهرة ناتجة عن عدم التجانس الكافى فى درجة النضج والوعى السياسى بين الشعوب العربية .

وان كان وجود العدو الإسرائيلى المشترك يمثل تحديا لهذا الوجود القومى للعرب ، خاصة إذا ظهرت بارقة أمل فى انتصار عربى يعيد لأبناء هذه الشعوب قدراً من الثقة بالنفس يمكنهم من قبول ذلك التحدى ، وربما كان فى ذلك انطلاقه نحو تحقيق هذا الكيان القومى المتكامل الذى مازال يتخبط بين تيارات المثاليات وعواصف المزايدات بين الزعماء والقادة فى هذه المنطقة من العالم .

قراءات مقتـــرحة بالاضـــافة
الى ما ورد ذكره فى هوامش المقال

(١) د. ابراهيم أنيس : محاضرات عن مستقبل اللغة العربية المشتركة (القاهرة : معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠) .

2) Ahmed Jamal, The Intellectual Origins of Egyptian Nationalism (London : Oxford University Press, 1960).

3) Baulin, J., Paçe au Nationalisme Arab (Paris: Berger, 1959).

4) Childers, E. B., Common Sense About The Arab World (London : Victor Gollancs, 1960).

5) Cremeans, C., The Arabs and the World: Nasser's Arab Nationalist Policy (Now York: Praeger, 1963).

6) Deutsch, K.W., Nationalism and Social Communication : An Inquiry Into The Foundations of Nationality (New York : Wiley, 1953).

7) Emerson, R., From Empire to Nation : The Rise of Self-Assertion of Asian and African Peoples (Cambridge : Harvard University Press, 1960).

8) Ginsberg, M., Nationalism : A Reapraisal (Leeds: Leeds University Press, 1961).

9) Harrari, M., Government and Politics of the Middle East (Englewood Cliffs, N.J. : Prentice-Hall, 1962).

10) Hayes, C., Nationalism : A Religion (New York: Macmillan, 1960).

11) Hourani, A., Arabic Thought in the Liberal Age : 1798-1939 (London : Oxford University Press, 1962).

12) Kedourie, E., Nationalism (London : Hutchinson, 1960).

13) Lerner, D., The Passing of Traditional Society in the Midle East (New York : Frce Press, 1958).

14) Longrigg, S., The Middle East : A Social Geography, (Chicago : Aldine, 1963).

15) Marlowe, J., Arab Nationalism and British Imperialism : A Study in Power Politics (London : Crescent Press, 1961).

(١٦) د . محمد حافظ غانم : محاضرات عن جامعة الدول العربية(القاهرة: معهد الدراسات العربية ، ١٩٦٠) .

(١٧) عبد الله الريحاوى : المنطلق الثورى للحركة القومية العربية الحديثة (القاهرة : معهد الدراسات العربية ، ١٩٦١) .

* * *